سورة ﴿عبس﴾

وفيها ثلاث عشرة مسألة:

المسألة الأولى: ما سبب نزول هذه السورة الكريمة ؟ وما دلالة هذا السبب ؟

الجواب: بدايةهذه السورة الكريمة نزلت – عند جمهور المفسرين – فى إعراض الرسول ﷺ عن عبد الله بن أم مكتوم ﷺ قال الواحدى: (هو ابن أم مكتوم، وذلك أنه أتى النبي ﷺ وهو يناجى عتبة بن ربيعة وأبا جهل بن هشام، وعباس بن عبد المطلب، وأُبَياً وأمية ابني خلف، ويدعوهم إلى الله تعالى ويرجو إسلامهم، فقام ابن أم مكتوم وقال: يا رسول الله، علمني مما علمك الله، وجعل يناديه ويكرر النداء ولا يدرى أنه مشتغل مقبل على غيره، حتى ظهرت الكراهية في وجه رسول الله ﷺ لقطعه كلامه، وقال في نفسه: يقول هؤلاء الصناديد: إنما أتباعه العميان والسفلة والعبيد، فعبس رسول الله ﷺ وأعرض عنه وأقبل على القوم الذين يكلمهم،فأنزل الله تعالى هذه الآيات، فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك يكرمه، وإذا رآه يقول: "مرحباً بمن عاتبني فيه ربى)[1]، وهذا السبب مُجمَع عليه من قِبَل المفسرين .

لكن الأهم من ذلك هو دلالة هذا السبب وما يُستفاد منه، فمن ذلك:

- الدلالة على صدق هذا القرآن وأنه من عند الله وليس من عند الرسول ﷺ، إذ لا يُعقل أن يكون هذا القرآن من عند محمد فيأتى فيه بهذا الموقف ويُعاتب نفسه بنفسه، ويُعلن ذلك للناس.
- الدلالة على أمانة الرسول ﷺ فى تبليغ هذا القرآن للناس، وعدم كتمان أى حرف منه، ولو كتم الرسول ﷺ منه شيئاً ولم يبلغه للناس – كما يدعى الشيعة الروافض الجهلاء – لأخفى عن الناس مثل هذه الآيات التى فيها عتاب له ﷺ.

(١) أسباب النزول للواحدى ، ص ٢٩٧ .

- أن الرسول ﷺ بشر يجوز في حقه كل الصفات البشرية التي لا تقتضي نقصاً، وقد عبس في وجه الأعمى عبد الله بن أم مكتوم حين جاءه يسترشده، مقدِّماً غيره عليه ظناً منه أن فى ذلك مصلحة للدعوة، فلما خالف الأولى عاتبه القرآن على ذلك .
- أن الإسلام أول من وضع وراعى حقوق هذه الطائفة التى يسميها العالم الغربى اليوم " ذوى الاحتياجات الخاصة"، وقد سبق الإسلام غيره لتقرير وإثبات هذه الحقوق لها، حتى أن القرآن الكريم يدل على ذلك بدلالة لطيفة ألا وهى عتاب الرسول ﷺ لأنه عبس فى وجه أعمى، الأصل أنه لن يرى هذا العبوس ولن يلاحظه إلا إذا كان مبصراً، لكن حتى هذا الأمر الذى لن يراه الأعمىطلب الإسلام مراعاته، فما بالك بمن يؤذى صاحب الإعاقة بكلمة جارحة أو تعليق ساخر أو شماتة مهينة أو انتقاص مزرٍ، فليس هذا من خلق الإسلام فى شئ .
- وإذا عاتب القرآن نبيه ﷺ لعبوسه فى وجه أعمى لن يراه، فإن كراهة العبوس والإعراض عن المبصر ستكون أشد، وفى ذلك درس لنا جميعاً فى التخلق بجميل الأخلاق، وطيب المقابلة، والحرص على التبسم فى وجوه إخواننا من المؤمنين خاصة عند المقابلة، والبشاشة عند المصافحة، والترحيب عند الزيارة، وكل هذا من حق المسلم على أخيه المسلم ومن بواعث الألفة وعوامل المحبة فى المجتمع الإسلامى، كما دلت على ذلك آيات القرآن الكريم وسنة سيد المرسلين ﷺ.
- وإن قال قائل كيف نجمع بين عبوس الرسول ﷺ فى وجه هذا الأعمى وبين مدح القرآن الكريم للرسول ﷺ بعظيم الخلق فى قوله تعالى: **﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ(٤)﴾**[1]، فيُجاب على ذلك:

(١) سورة القلم / الآية ٤ .

بأن الرسول ما أعرض عن الأعمى لكونه أعمى؛ بل فعل ذلك لما ظنه من مصلحة الدعوة طمعاً منه فى إسلام كبراء قريش علَّ الله أن يفتح بإسلامهم قلوب أتباعهم، ثم إنه من عظيم خلقه لم يأت بفعل يجرح فيه كرامة هذا السائل الأعمى؛ فلم يكلمه بكلمة تؤذيه، أو يوبخه ويعنفه بشئ يكرهه، بل غاية ما فعل ﷺ أنه عبس بوجهه وقطَّب جبينه، وهي حركة مرئية لا مسموعة، والحال: أن هذا أعمى لا يرى تلك الحركة، ولن يُضار منها لأن العبوس لا يراه إلا المبصرون فكأنهلم يلق إساءة منه؛ وبالرغم من ذلك فقد عوتب ﷺ من باب التسامي بأخلاقه إلى أعلى غاية وأقصى مدى،إلى حد اللحظ بالعين، والتقطيب بالجبين، ولو لمن لا يراه .

المسألة الثانية: ما الحكمة من ذكر الآية لوصف يكرهه الناس؟ ألا يدخل هذا فى باب التنابز بالألقاب؟

الجواب: إن ذكر الآية للفظ الأعمى لا يدخل فى باب التنابز بالألقاب، وذلك لأن ذكره فى هذا السياق ليس من أجل التنقص والاستهزاء بهذا الصحابى الجليل عبد الله بن أم مكتوم بل ورد ذكره لحِكمٍ، منها :

- بيان عذره وعدم تعمده مقاطعة الرسول وصرفه عما هو فيه من دعوة أشراف قومه، لأنه أعمى لم ير انشغال الرسول بما هو فيه، ولو رآه لربما انتظر حتى يفرغ .
- التأكيد على حسن خلقه ﷺ فهو لم يزجر الرجل أو يدفعه عنه بسوء القول وعنيف الفعل، بل اكتفى بأن عبس بوجهه بحيث لا يراه هذا الأعمى فلا يؤذيه هذا الفعل من الرسول ﷺ.
- ولعل ذكر هذا الوصف فيه من التهكم والتعريض بسادة قريش أصحاب الأعين المبصرة والقلوب التى أصابها العمى، فصدوا عن سبيل الهدى ولم يروه، بينما رأى هذا الرجل أعمى البصر

مبصر القلب نور الهدى وطريق الحق فجاء مسرعاً متلهفاً يطلب من الرسول أن يدله على طريق الحق، فما أعظمها من مفارقة بين مبصر العين أعمى القلب، وأعمى العين مبصر القلب .

المسألة الثالثة: كيف عقدت الآيات مقارنة بين فريقي الضلالة والهداية ؟

الجواب: أوضحت الآيات الفارق الكبير بين من أعرض واستغنى عن الهداية وبين من يسعى ويحرص عليها، فقال الله ﷻ واصفاً الفريق الأول: **﴿أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ (٥) فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ(٦) وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ (٧)﴾** أى يا محمد أنت تتصدى وتتعرض لمن استغنى عن الإيمان بسبب جاهه وماله وبنيه وتأمل أن يهديه الله ﷻ فتقبل عليه وهو مستغن عنك معرض عنك، ولا حرج عليك ولا إثم إذا لم يؤمن بك، فدورك هو الإبلاغ والهداية بيد الله ﷻ .

أما هذا الباحث عن الحقيقة: **﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ (٨) وَهُوَ يَخۡشَىٰ (٩) فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ (١٠)﴾** فهو على نقيض الصنف الأول، فقد جاء يسعى إليك مجتهداً طالباً الهداية والرشاد، وهو خائف وجلٌ من الله ﷻ، فإذا بك تعرض عنه وتنصرف إلى غيره، **﴿كَلَّآ﴾** أى ليس الأمر كذلك، وما كان ينبغى أن يحدث ذلك منك فى حق هذا السائل الحريص على الهداية .

المسألة الرابعة: ما الصحف التى تحدثت عنها الآيات ؟

الجواب: قال الله ﷻ: **﴿فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ (١٣) مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ (١٤) بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ (١٥) كِرَامِۭ بَرَرَةٖ (١٦)﴾** وقد اختلف العلماء فى المراد من هذه الصحف على ثلاثة أقوال:

القول الأول: إن المراد بها صحف اللوح المحفوظ، وعلى هذا فتأتى الصفات بعدها تابعة لهذا المعنى، فهى صحف مرفوعة عالية، قال الشوكانى: (إنها رفيعة القدر عند الله، وقيل مرفوعة في السماء السابعة)[1]

(١) فتح القدير ٥/ ٥٤٠ .

مطهرة لأنها فى الملأ الأعلى لا يمسها إلا الملائكة المطهرون، وهم السفرة أى (الكتبة من الملائكة ينسخون الكتب من اللوح المحفوظ، قال الفراء: السفرة هنا الملائكة الذين يسفرون بالوحي بين الله ﷻ ورسوله، من السفارة وهو السعي بين القوم وأنشد :

فما أدع السفارة بين قومي * ولا أمشي بغير أب نسيب)** [1]

فوصفتهم الآيات بأنهم سفرة؛ أى جعلهم الله ﷻ سفراء بينهم وبين رسله .

ثم أكملت الآيات وصف هؤلاء الملائكة الأطهار؛ فهم كرام أى: كرام عند ربهم بترك المعاصى، والمداومة على الطاعة، وبررة جمع بار أى: أتقياء مطيعون صادقون فى إيمانهم .

أما القول الثانى: فى تفسير الصحف المكرمة فهى كتب الرسل السابقين التى أوحى الله بها إليهم، كصحف إبراهيم والزبور والتوراة والإنجيل، وتكون هذه الأوصاف هى أوصاف هذه الكتب، وفيها تذكرة أى: أن هذه الكتب قد جاء فى أصولها مثل ما جاء فى القرآن من دعوة للتوحيد والأخلاق .

والقول الثالث: إن الصحف المطهرة هى القرآن الكريم وفى الآية إشارة إلى أن القرآن سيتم جمعه فى صحف مكتوبة، وكتابة القرآن فى الصحف وإن وجدت فى حياة الرسول ﷺ إلا أنها كانت مفرقة غير مجموعة، ثم تم جمع القرآن الكريم كاملاً فى مصحف واحد فى عهد الخليفة الراشد الصديق أبى بكر ﷺ فالقرآن مجموع فى صحف مكرمة، لأنها نزلت من كريم، وكرامة الكتاب من كرامة صاحبه، ألا ترى بلقيس وقد وصفت رسالة سليمان لها بأنها كتاب كريم، مرفوعة عن العبث والتحريف، مرفوعة القدر عند الله ثم عند الناس، مطهرة فلا يمسها إلا المطهرون ويحرم مسها على الحائض والجنب والنفساء، ثم امتدحت

(١) المرجع السابق ٥ / ٥٤٠ .

الآيات كتاب الوحى وحفاظه وقراءه فهم السفرة (قال أبو عبيدة: سفرة :كتبة، واحدهم سافر وهي لغة كنانة) [١]، وقيل: هم أصحاب الرسول ﷺ، قال ابن العربى المالكى فى الأحكام: (لقد كان أصحاب رسول الله ﷺ سفرة، كراماًبررة، ولكن ليسوا بمرادين بهذه الآية، ولا قاربوا المرادين بها، بل هي لفظة مخصوصة بالملائكة عند الإطلاق، ولا يشاركهم فيها سواهم، ولا يدخل معهم في متناولها غيرهم) [٢] .

المسألة الخامسة: ما المعنى المراد من القتل فى قوله: ﴿قُتِلَ ٱلإِنسَٰنُ مَآ أَكفَرَهُ (١٧)﴾؟

الجواب: ذكرنا من قبل أن لفظ (القتل) كثيراً ما يأتى فى القرآن الكريم بمعنى اللعن، وقد ورد هذا فى أكثر من موضع، كما سبق ذكره فى سورة البروج، فى قوله ﷻ: **﴿قُتِلَ أَصحَٰبُ ٱلأُخدُودِ(٤)﴾**[٣]، وفى هذا الموضع فإن الإنسان المقصود هنا ليس جنس الإنسان؛ بل هو الإنسان الكفور، بدليل قوله: **﴿مَا أَكفَرَهُ(١٧)﴾** فالمعنى: لُعِن الإنسان الكافر، ما أشد كفره، أو ما الذى دفعه للكفر مع أن نعم الله ﷻ عليه ظاهرة لا ينكرها إلا مكابر؟

وعلى هذا... ففى قوله: **﴿مَا أَكفَرَهُ(١٧)﴾** معنيان :

الأول: أن يكون الأسلوب أسلوباً بلاغياً يدل على شدة كفر الإنسان وعناده مع شدة ضعفه وعجزه، كما تقول ما أحلى طعم العسل، أو ما أشد سواد الليل، أو نحو ذلك مما يُعرف عند أهل البلاغة بأسلوب التعجب

أما المعنى الثانى: فيكون أسلوب استفهام، أى ما الذى جعل هذا الإنسان مع إحسان الله ﷻ له يكفر بخالقه المتفضل عليه بالإنعام؟، ونظيره قوله تعالى ﷻ: **﴿يَٰأَيُّهَا ٱلإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلكَرِيمِ (٦)﴾**[٤] .

---

(١) التبيان فى تفسير غريب القرآن ص ٤٤٩ .
(٢) أحكام القرآن ٨ / ٣٢ .
(٣) سورة البروج / الآية ٤ .
(٤) سورة الانفطار / الآية ٦ .

وفى الآية استشعار بحلم الله ﷻ على عباده – خاصة الكافرين منهم – فمع أنهم يستحقون اللعن والطرد من رحمة الله؛ إلا أن الله ﷻحليم بهم يمهلهم ولا يعجل لهم العقوبة، وفى الحديث: (ما أحد أصبر على أذى يسمعه من الله تعالى، إنهم يجعلون له نداً ويجعلون له ولداً، وهو مع ذلك يرزقهم ويعافيهم ويعطيهم) (١) .

المسألة السادسة: ما العلاقة بين قوله: ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا أَكۡفَرَهُۥ(١٧)﴾، وبين: ﴿مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ (١٨)﴾؟

الجواب: المتأمل لترتيب هاتين الآيتين يجد العلاقة بينهما واضحة، فالثانية تذكير لهذا الإنسان المتغطرس بقوته المفتون بسلطانه بأصل خلقته، ومراحل نموه، وضعفه وعجزه، فهو يتقلب فى رحمة خالقه، ويعيش فى إحسانه منذ اللحظة الأولى من نشأته، فإذا خرج إلى هذه الدنيا واشتد ساعده قابل النعمة بالجحود، والعطاء بالإنكار فكفر بربه وقد خلقه .

المسألة السابعة: ما معنى التقدير فى قوله: ﴿مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ(١٩)﴾؟

الجواب: أصل التقدير الضبط والإتقان ووضع الشئ فى موضعه، وهذا ملحوظ من أول مرحلة من مراحل خلق الإنسان حتى المحطة الأخيرة من حياته، فالله ﷻ قدَّر مراحل خلق الإنسان وتطور نموه من نطفة، فعلقة فمضغة، ثم يبدأ تكوين العظام، ثم تُكسى العظام، لحماً، ثم يولد، ويكون طفلاً، ففتى، فشاباً ،ثم كهلاً، فشيخاً فهرماً، وكلها مراحل يسلم بعضها بعضاً فى غاية السلاسة وتمام الانضباط .

وهناك تقدير آخر معلوم مشاهد فى ضبط أعضاء الإنسان وترتيبها على النحو الذى يُحسِّن خلقته ويعينه على معيشته، ويميزه عن غيره من سائر الوحش والبهائم، كتسوية العينين فى مكانهما اللائق بهما، وكذا الفم،

---

(١) صحيح مسلم ٤ / ٢١٦٠، ورقمه (٢٨٠٤) ، من حديث عبد الله بن قيس .

والأذنين، واعتدال القامة، وحسن الخلقة، إلى غير ذلك من الأمور المشاهدة التى لو حدث فى أي منها خلل لظهر فى الإنسان التشويه والنقصان، قال البقاعى: (﴿فَقَدَّرَهُ﴾ أي هيأه لما يصلح من الأعضاء الظاهرة والباطنة والأشكال والأطوار إلى أن صلح لذلك) [١] .

المسألة الثامنة: ما المراد من قوله: ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (٢٠) ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١)﴾؟

الجواب: للعلماء فى المراد من السبيل فى الآية السابقة أقوال، منها:

أولاً : السبيل هو طريق خروج الإنسان من رحم أمه، فقد يسر الله ﷻ للجنين سبيل الخروج من رحم أمه وهو مروى عن جماعة منهم ابن عباس قال: (خروجه من بطن أمه يسره له)[٢] .

ثانياً: وقيل المراد بالسبيل هو قوله ﷻ: **﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرا وَإِمَّا كَفُورًا (٣)﴾** وهو طريقالخير وطريق الشر، وهو قول مجاهد، ورجحه ابن كثير فى تفسيره [٣].

ثالثاً: أو أن السبيل هنا هو معرفة الإنسان – بما حباه الله ﷻ من عقل – ما ينفعه فيُقبل عليه، وما يضره فيبتعد عنه، وهو فى ذلك مدفوع إلى منافعه منذ ولادته بفطرته، ثم بعقله وخبراته فى مراحل حياته المتتابعة بعد ذلك، وهذا من تيسير الله ﷻ له .

ويمكن الجمع بين كل هذه المعانى فكلها ممكنة إذ لا تعارض بينها، وهو ما يبين اتساع اللفظ القرآني وتعدد معانيه .

أما فيما يتعلق بقوله ﷻ: **﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١)﴾**، فهى منة عظيمة من الله ﷻ على عباده أن علمهم كيف يقبرون – أى يدفنون – موتاهم، وقد حدث هذا فى القصة المعروفة فى حادثة قتل قابيل لأخيه هابيل، ثم ما كان من إرسال الله ﷻ للغراب الذى قتل أخاه فحفر له فى الأرض،

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ٢١ / ٢٦١ .
(٢) تفسير الطبرى ٢٤ / ٢٢٤ .
(٣) تفسير القرآن العظيم ٨ / ٣٢٢ .

وواراه الثرى، وابن آدم ينظر إليه حتى انتهى، فقلدَّه، وحفر قبراً وارى فيه جثمان أخيه المقتول، ولولا هذا لظل الميت مطروحاً على ظاهر الأرض حتى ينتن جسده وتخرج رائحته، لكن إكرام الله ﷻ للإنسان بأن يسر له سبيل دفن الموتى وعلَّمه ذلك منذ نشأة الخليقة بما يحفظ على الموتى كرامتهم وييسر سبيل الحياة على ظاهر الأرض للأحياء وفى باطنها مستقر للأموات .

المسألة التاسعة: ما الحكمة من تنوع استعمال الآيات لحرفى العطف "ثم ، والفاء "فى الآيات السابقة؟

والجواب :إن استعمال الآيات لحرفى العطف (ثم) التى تفيد التريث تارة، و(الفاء) التى تفيد السرعة تارة أخرى، هو استعمال ينسجم مع المرحلة الزمنية والفترة الوقتية التى تفصل بين كل مرحلة وأخرى .

فعند حديث القرآن عن خلق الإنسان من نطفة مخلوقة فقدَّر لهذه النطفة أقدارها، وما يصلحها على وجه السرعة فجاءت الفاء قال: **﴿فَقَدَّرَهُ﴾**، ومكث هذا الجنين فى بطن أمه حتى حان موعد خروجه ثم يسر الله تعالى له سبيل الخروج من بطن أمه بعد مكثه فى بطنها تسعة أشهر فجاء بحرف (ثم) **﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾**، لأن الأمر على التراخى، ثم عاش الإنسان عمره الذى قد يطول عشرات السنين لتحين لحظة الرحيل التى عبرت عنها الآيات بحرف (ثم) **﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ﴾** لأن الفترة طويلة بين تيسير الخروج له من بطن أمه حتى موته، لكنه لما مات احتاج إلى سرعة دفنه ومواراة جثمانه، فجاء حرف العطف (الفاء) **﴿فَأَقْبَرَهُ﴾**، ليفيد سرعة هذه المرحلة ما بين موته حتى دفنه فى قبره، ليمكث فى قبره ما شاء الله له أن يمكث، وفترة المكث فى القبر فترة طويلة فقد يقضى المرء فى قبره الآف السنين، حتى يأتى أمر الله تعالى بالبعث والنشور، فاستعملت الآيات حرف العطف (ثم) **﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُ﴾**، لإفادة البعد ما بين نزول الميت فى قبره حتى خروجه منه للعرض والنشور والحساب، فما أروع هذا الاستعمال وأبلغه ودقته فى موضعه .

المسألة العاشرة: عدَّدت الآيات ثمانية من أنواع نبات الأرض ... فما هى ؟

الجواب: قال الله ﷻ ممتناً على عباده بعظيم فضله وجزيل نعمائه: **﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبّاً (٢٧) وَعِنَباً وَقَضْباً (٢٨) وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْباً (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبّاً (٣١)﴾**.

هذه الأصناف الثمانية مما تخرجه الأرض الواحدة التى تُسقى بماء واحد، فيخرج منها الحب، والزيتون، والقضب والنخل، والحدائق، والفاكهة، والأب .

فأما الحَب فهى كلمة شاملة لسائر أنواع الحبوب، قال الزمخشرى: (هو كل ما حُصِد من نحو الحنطة والشعير وغيرهما) [١] .

والعنب فاكهة معروفة حلو مذاقها، عظيم فائدتها، والعرب تجففه فيكون زبيباً تدخره لقوتها، قال عنه ابن القيم: (قد ذكر الله سبحانه العِنَبَ فى ستة مواضع مِن كتابه فى جملة نعمه التى أنعم بها على عباده فى هذه الدار وفى الجَنَّة، وهو من أفضلِ الفواكه وأكثرِها منافعَ، وهو يُؤكل رطباً ويابساً، وأخضرَ ويانعاً، وهو فاكهةٌ مع الفواكه، وقوتٌ مع الأقواتِ، وأُدمٌ مع الإدام، ودواءٌ مع الأدوية، وشرابٌ مع الأشربة) [٢]،كما عدّه ابن القيم أحد ملوك الفاكهة الثلاثة: (العنب، والرطب، والتين) [٣].

والقضب قال ابن قتيبة: (الْقَضْبُ) القَتُّ، يُقال: سميَ بذلك: لأنه يُقْضَبُ مرَّة بعد مرة؛ أي يُقطع)[٤] والقت كما عرَّفه بعض المعاصرين بأنه البرسيم، ويمكن حمله على كل المزروعات التى يقطعها المزارع ثم تنمو ثانية، قال الشيخ مساعد الطيار: (وأن حمل تفسير السلف على المثال لا

(١) الكشاف ٤ / ٧٠٤ .
(٢) زاد المعاد ٤ / ٣٤٠ .
(٣) انظر المرجع السابق ٤ / ٣٤٠ .
(٤) غريب القرآن ١/ ٥١٤، عبد الله بن مسلم بن قتيبة، دار الكتب العلمية، سنة ١٣٩٨هـ،١٩٧٨م.

التعيين في هذا الوضع، فإن القضب يطلق على ما يقضب من النبات؛ أي ك يقطع ثم ينمو، ويشمل ذلك أصنافاً كثيرة تشبه العلف في هذا الوصف؛ كالجرجير والكراث والنعناع، وغيرها، والله أعلم) [١].

والزيتون: وهو معروف مشهورة فوائده، ويعصر منه الزيت، والنخل جمع النخلة ومنها يجمع الرطب، والحدائق جمع حديقة، والفرق بين الحديقة والبستان، أن الحديقة تُسمى بهذا الاسم إذا كان لها سور، فإن لم يكن لها سور سميت بستاناً، (قال الكلبي: وكل شيٍ أُحِيطَ عَلَيْهِ مِنْ نَخِيلٍ أَوْ شَجَرٍ فَهُوَ حَدِيقَةٌ، وَمَا لَمْ يُحَطْ عَلَيْهِ فَلَيْسَ بِحَدِيقَةٍ) [٢]، وقد وصفها الله تعالى بالغُلب، وفى لغة العرب أن الرجل الأغلب هو غليظ الرقبة، ويُسمى الأسد بالأغلب لأنه مصمت العنق لا يلتفت إلا جميعاً، فهذه الحدائق أشجارها غليظة الجذوع، ضخمة الأغصان، عالية طوال، والفاكهة ما يتفكه به الإنسان من شتى أنواع الفواكه وثمار الأشجار، وأما الأَبُّ فقد اختلف المفسرون فى بيانه قال القرطبى: (هو ما تأكله البهائم من العشب، قال ابن عباس والحسن: الأَبُّ: كل ما أنبتت الأرض مما لا يأكله الناس، ما يأكله الآدميون هو الحصيد، ومنه قول الشاعر في مدح النبي ﷺ:

له دعوة ميمونة ريحها الصبا * بها ينبت الله الحصيدة والأبا)** [٣]

المسألة الحادية عشرة: لم سُمى يوم القيامة بالصاخة ؟

الجواب: الصاخة اسم من أسماء يوم القيامة، (والصخ الضرب بالحديد على الحديد، وبالعصا الصّلبة على شيء مصمت، فيسمع إذ ذاك صوت شديد والمراد هنا بالصاخة هو المراد بالقارعة فى سورتها، وهى الطامة الكبرى، ويكون نذيرها ذلك الصوت الهائل الذي يحدث من تخريب الكون ووقع بعض أجرامه على بعض، ومن ثمّ سميت صاخة وقارعة) [٤].

---

(١) تفسير جزء عم للشيخ مساعد الطيار، د. مساعد بن سالم الطيار، ص٥٦، دار ابن الجوزى، الطبعة الثامنة، ١٤٣٠.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٩ / ٢٢٢ .

(٣) المرجع السابق ١٩ / ٢٢٢ .

(٤) تفسير المراغى ٣٠ / ٤٩ ، أحمد مصطفى المراغى ، مطبعة مصطفىالحلبي ،القاهرة .

وقال ابن قتيبة: (صخت تصخ صخاً، أي تصم، ويقال: رجل أصخ وأصلخ؛ إذا كان لا يسمع) [1]، فهى تدل على الصوت الشديد المرتفع الذى يصخ الآذان، وحكى الفخر الرازى أن المفسرين يرون المقصود بها (صيحة القيامة وهي النفخة الأخيرة) ، لأنها تصخ وتصدم الآذان بشدتها فلا يبقى أحد من الخلائق على كثرتهم إلا ويصل صوتها لأذنيه .

وللصاخة معنى آخر ألا وهو الإنصات والاستماع بتركيز واهتمام وهو وجه ذكره صاحب (الكشاف)، فقال: (يقال صخ لحديثه مثل أصاخ له، فوصفت النفخة بالصاخة مجازاً، لأن الناس يصخون لها أي: يستمعون) [2] وليس بين المعنيين – الصوت الشديد والإنصات – تعارض، إذا إن الخلائق تنصت للصوت المرتفع، فتأتى نفخة القيامة شديدة مرتفعة، عالية مدوية فتنصت لها الآذان، وتخشع لها القلوب، وتفزع لهولها العقول.

المسألة الثانية عشرة: ما الحكمة فى ترتيب الآيات لفرار المرء يوم القيامة من أخيه أولاً ثم أمه وأبيه ثم صاحبته وبنيه ؟

الجواب: جاء ترتيب فرار المرء يوم القيامة بهذا الترتيب من الأخ فالوالدين ثم الزوجة والأولاد للتعبير عما يصيب المرء يوم القيامة من هول يشغله عن كل أحد مهما كانت قرابته فى الدنيا وعظيم تعلقه به، وبدأت الآيات بذكر الأقرب فالأكثر قرباً، فالأخ وقد كان عوناً له فى الدنيا، ثم يزداد الهلع فيفر من والديه وكان يحرص على خدمتهما ورعايتهما، ثم زوجه وقد كان يبذل نفسه فى الدنيا للدفاع عنها، فأولاده وهم فلذات أكباده وقد كان فى الدنيا يفديهم بماله وروحه، ولا يغمض له جفن إن مسهم ضرر مهما قلَّ، واليوم يفر من هؤلاء جميعاً لما نزل به من الكرب والهم .

قال شيخ الإسلام فى (مجموع الفتاوى) لما سئل عن حكمة ابتداء الآية بفرار المرء من أخيه، ومن عادة العرب أن تبدأ بالأهم؟ فأجاب السائل

---

(١) المرجع السابق ١٩ / ٢٢٢ .
(٢) الكشاف ٤ / ٧٠٦ .

بقوله: (قلت: إن الابتداء يكون في كل مقام بما يناسبه، فتارة يقتضي الابتداء بالأعلى وتارة بالأدنى، وهنا المناسبة تقتضي الابتداء بالأدنى، لأن المقصود بيان فراره عن أقاربه مفصلاً شيئاً بعد شيء، فلو ذكر الأقرب أولاً لم يكن في ذكر الأبعد فائدة طائلة، فإنه يُعلَم أنه إذا فر من الأقرب فر من الأبعد، ولما حصل للمستمع استشعار الشدة مفصلة، فابتدئ بنفي الأبعد منتقلاً منه إلى الأقرب، فقيل أولاً:﴿يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ٣٤ ﴾فعُلِم أن ثم شدة توجب ذلك، وقد يجوز أن يفر من غيره ويجوز أن لا يفر، فقيل: **﴿وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥)﴾** فعُلِم أن الشدة أكبر من ذلك بحيث توجب الفرار من الأبوين، ثم قيل: **﴿وَصَٰحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦)﴾** فعُلِم أنها طامة بحيث توجب الفرار) [١].

وذهب بعض المفسرين إلى أن فرار المرء من قرابته المذكورة إنما يكون خوفاً منه من مساءلتهم لتقصيره فى حقهم قال الزمخشرى: (وقيل: يفرّ منهم حذراً من مطالبتهم بالتبعات، يقول الأخ: لم تواسني بمالك، والأبوان: قصرت في بِرِنا، والصاحبة: أطمعتني الحرام وفعلت وصنعت، والبنون: لم تعلمنا ولم ترشدنا .

وقيل: أوّل من يفرّ من أخيه: هابيل؛ ومن أبويه: إبراهيم؛ ومن صاحبته: نوح ولوط؛ ومن ابنه نوح) [٢].

المسألة الثالثة عشرة: كيف قارنت الآيات بين وجوه المؤمنين ووجوه الفاجرين يوم الدين ؟

الجواب: أوردت الآيات وصفاً لوجوه أهل الإيمان والطاعة يوم القيامة وكذا وصفاً لوجوه الكفر والفجور، بما يسهل على القارئ وضوح الفرق بين أهل الحق وأهل الباطل، فبضدها تتميز الأشياء فأهل الإيمان وجوههم مسفرة، وهو من أسفر الصبح إذا ظهر نوره، فوجوههم يعلوها النور

(١) مجموع الفتاوى ١٦ / ٧٤ .
(٢) الكشاف ٤ / ٧٠٦ .

والبهاء، فما سر هذا النور؟ تعددت أقوال المفسرين فى بيان سر نور وجوه المتقين، فقال بعضهم: "من قيام الليل"، فمن قام فى ظلمة الليل ونصب قدميه بين يدى مولاه والناس رقود كوفئ بالنور فى وجهه والبِشر فى محياه، وهذا ملحوظ فى دنيا الناس بما يرونه من نور الطاعة على وجوه الصالحين، فمن كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار، وقد سئل الحسن البصري: "ما بال المتهجدين بالليل منأحسن الناس وجوهاً؟ فقال: لأنهم خلو بالرحمن فألبسهم من نوره"، وقال سعيد بن المسيب: "إن الرجل ليصلي بالليل، فيجعل اللهفي وجه نورايحبه عليه كل مسلم، فيراه من لم يره قط فيقولإنى لأحبُ هذا الرجل"، فنور الطاعة يظهر على وجوه أهل الإيمان فى عرصات يوم القيامة، وقيل "هو نور الوضوء"، وقيل "هذا النور جزاء ما علا وجوه المجاهدين من غبار الحرب ونقع المعارك فى سبيل الله"، وبالجملة فكل الطاعات وكثير القربات لها أثر فى نور الإيمان الذى يظهر على وجه العبد الصالح فى الدنيا ويكون معه فى قبره يؤنس وحشة قبره وينير له ظلمة رمثه؛ ثم يقوده بعد البعث فى عرصات يوم القيامة حتى يعبر به الصراط فيوصله لمقعده فى الجنة .

وأهل الإيمان مع هذا النور يضحكون والناس يبكون، يستبشرون والناس وجلون، مطمئنون والناس خائفون ــ فأى فضل للطاعات فى هذه الدنيا الفانية، ورحم الله عاقلاً آثر دينه على دنياه، وقدَّم طاعة ربه على نفسه وهواه .

أما أهل المعاصى والمنكرات فتعلو وجوههم كدرة معاصيهم وغبرة البعد عن طريق الله، فهى وجوه سوداء بالمعاصى مظلمة بالآثام، قال الله ﷻ: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسۡوَدَّةٌ﴾ (١)، وقد صدق من قال: (لا ترى أوحش من اجتماع الغبرة والسواد فى الوجه) .

---

(١) سورة الزمر / من الآية ٦٠.